السمات النفسية السلبية وأثرها في دراسة الشخصية عند العقاد

أ . نبيل مزوار*

بين يدي العرض:

ما من شك في أن للمقومات النفسية أثرها البالغ على الشخصية سلبا وإيجابا ، فهي أحد أبرز مكوناتها الأساسية بل إنها تعتبر في عدد غير قليل من الشخصيات عناوين دالة عليهم لا يذكرون إلا بها ولا يعرفون إلا من خلالها .

ولعل المتتبع لتراجم العقاد يلمس ولعه الشديد بدراسة السمات النفسية التي اتصفت بها بعض شخصياته ، حتى أخذ عليه تحويل الدراسة الأدبية إلى بحوث نفسية على أن عنايته ببحث آثار هذه السمات يمتد إلى أول عهده بالتأليف في مطلع العشرينيات ولم يلبث أن ازداد هذا الاهتمام مع تطور الدراسات النفسية وتنامي حاجته إليها ولا غرو في ذلك فالعقاد من أكثر النقاد اشتغالا بفن التراجم دراسة وتأليفا .

السمات النفسية السلبيةو أثرها في العمل الإبداعي:

ويحمل العقاد على هذا الاهتمام اعتقاده بأن هناك صلة وثيقة بين السمات النفسية للمبدعين ولاسيما السلبية منها ، وبين عملية الإبداع ، لأن المبدع يحاول في كثير من الأحيان التسامي عن المعوقات التي تؤرقه بالإبداع الفني ، وهذه الفكرة بالذات يحرص علماء النفس على إثباتها[1] بل لعلها من أبرز الأسباب في كون بعض رواد هذا العلم وعلى رأسهم فرويد يلجأ ون إلى الأدب باعتباره ميدانا تطبيقيا لمفاهيمهم النظرية ، وبالمقابل يفسرون هذا الإبداع على أساس هذه العلل بلغة رمزية مشحونة بالدلالات[2] .

وقد كشف العقاد عن أهمية الحقائق النفسية في منهجه ، معتبرا أن تاريخ العظيم في نفسه لا في ظروفه الخارجية كما يروج له رواد المدرسة الاجتماعية ، لأن هذه الظروف بحسب العقاد « لن تعنينا في شيء إن لم يكن وراءها كشف عن

---

* كلية الآداب و العلوم الاجتماعية ، جامعة فرحات عباس ، سطيف .

(1) ينظر ، عادل عزالدين الأشول ، سيكولوجية الشخصية ، (د . ط) مكتبة الأنجلو مصرية 1978ص48

(2) ينظر أحمد حيدوش ، الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث

حقيقة نفسية في حياة المترجم له » [1] .

ولعل اللافت في دراسته وتحديده لهذه السمات هو اعتماده على آثار هذه الشخصيات لتتميم جوانب النقص المسجل في أخبارها ، وأن موقفه من هذه الشخصيات ساهمت في تحديده على نحو مباشر أو غير مباشر طبيعة هذه السمات .

الأنوثة في شعر عمر بن أبي ربيعة:

ففي دراسته لشخصية عمر بن أبي ربيعة ، أشار العقاد إلى الجانب الأنثوي في طبع الشاعر ، الذي يؤكده تشبهه بالنساء في تدليله لنفسه ، وإظهاره التمنع لطالباته ، وأن كلامه كما يرى العقاد ينم على ولعه بكلامهن والاستمتاع بروايته وترديده ، مما لا ينزع إليه الرجل صارم الرجولة عادة[2] .

ولعل جانب الأنوثة في طبع عمر وشعره يظهر أكثر ما يظهر برأي العقاد في « تدليل اسمه بين تلقيب وكناية وتسمية كما يعهد في أحاديث النساء ، فهو تارة أبو الخطاب وتارة المغيري ، وتارة عمر » [3] .

كما يستند العقاد في تقرير هذه السمة إلى قول الشاعر : « لقد كنت وأنا شاب أُعشق ولا أعشق ، فاليوم صرت إلى مداراة الحسان إلى المماة » [4] ، ثم ذكر قصة تشير إلى تحرش النساء به إمعانا في بيان أنه مطلوب لا طالب ،

ويرى العقاد في ذلك مؤشرا سلبيا ، لأنه ما من شاب يبلغ مبلغه في الفتوة والطاقة إلا وينجذب إلى هوى النساء ، إلا أن يكون المانع عن ذلك عرف أو شرع « فإن لم يكن هذا المانع ففي انتظاره أن يطلب معشوقا قبل أن يطلب عاشقا أنثويا لا ترضاها طبائع الفحول » [5] .

كما عزز العقاد رأيه في تقرير هذا الحكم إلى أبيات من شعره قال فيها :

قَالَتْ ثُرَيَّا لأُتْرَابٍ لَهَا قُطُفٌ ... قُمْنَ نُحَيِّي أَبَا الخَطَّابِ عَنْ كَثَبِ

فَطِرْنَ حَدّاً لِمَا قالَتْ وَشَايَعَهَا ... مِثْلَ التَّمَاثِيلِ قدْ موّهن بالذهبِ[6] .

---

(1) عباس العقاد ، عباس العقاد ، ساعات بين الكتب ، ط 1 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1986 ، مج 26 ، ص 604 .

(2) ينظر عباس العقاد ، شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة ، ص . 193

(3) عباس العقاد ، شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 ، مج 16 ، ص 193 .

(4) المرجع نفسه ، ص 194 .

(5) المرجع السابق ، ص 194 .

(6) ينظر ، المرجع نفسه ، ص 193 . وانظر ، ديوان عمر بن أبي ربيعة ، شرح : يوسف شكري فرحات ، ط 1 ، دار الجيل ، بيروت ، 1992 . ، ص 150 .

وقوله :

وَقوْله قومِي تَصَدِّي له لِيبْصِرَنَـا ثـمّ أغمِزيـهِ يَـا أخْـت فِـي خَفَـرِ
قالتْ لـهَا قدْ غـمَـزْته فأَبَـى ثمّ اسبطرَتْ تَمْشِي عَلى أثَـرِي[1] .

وذهب العقاد إلى أبعد من ذلك في وصف شعر عمـر بـن أبـي ربيعـة الـذي يخاطب فيه النساء بأن ليس في ديوان الشاعر كله بيتـا واحـدا « يـدل علـى سـطوة رجل يروع الأنثى بمـا تميـل إليـه فطرتهـا مـن مظـاهر البـأس والغلبـة »[2] ، وأن حديثه عن الأنثى هو حديث ظرفاء المجالس وهذه الطبقـة كمـا يـرى العقـاد يشـبه إحساسها إحساس المرأة وهم « يشبهونها بعض الشبه فيصـدقون في الحكايـة عنهـا والتحدث بخوالج نفسها »[3] . ورغم اجتهاد العقاد في سوق الأدلـة لتأكيـد رأيـه في الشاعر غير أن النقاد لا يرون في ما عرض من أدلة مسوغا كافيا لوصف طبـع بـن أبي ربيعة أو شعره بالأنثوي .

فأما كونه يسوق كلمات النساء في مجال القص في مغامراته الغراميـة فلـيس دليل إدانة كما يرى الدكتور عمر فروخ بل هو دليل براعة فنية وقدرة على التصـوير بواقعية ، ويدل أيضا على خبرتـه بعقليـة النسـاء وبصـره بخطـابهن ، وقدرتـه علـى تدوير الحديث معهن ، وكيف يتوصل إلى إغواء للمنيعة منهن[4] .

ثم إن عمر لـيس بـدعا في ذلـك ، فجميـل بـن معمـر وهـو إمـام العـذريين والغزل العذري لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذوات الحـوار مـن مثـل هـذه العبارات ، التي تفيض بالحديث عن أنوثة المرأة وتكشـف مشـاعرها الخاصـة ومـا تهفوا إليه ، وهو صاحب البيت المشهور :

ألا أيّهَـــا النّـــوّام وَيْحَكـــمْ هبّـــوا أسْألكمْ هَلْ يَقتل الرّجلَ الحبّ[5]

كما لا يمكن أن يكون ما في ألفاظ عمر من رقة ولـين باعثـه الوحيـد نشـأة الترف والتقلب في النعمة ، فما القول في من نشـأ في الفقـر والخشـونة ومـع ذلـك كان شعره يتدفق بالألفاظ الرقيقة الناعمة ، بل إن كلماتـه وكلمـات عمـر تخرجـان من مشكاة واحدة وأعني به بشار بن برد ، ومن ذلـك قولـه علـى لسـان فتـاة قاصـر اغتصبها :

(1) ينظر، المرجع نفسه ، ص 193 . وانظر ، الديوان ، ص 160 .
(2) المرجع نفسه ، ص 196 .
(3) المرجع نفسه ، ص 197 .
(4) ينظر ، عمر فروخ ، عمر بن أبي ربيعة ، (د . ط) ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت ، 1983 ، ص 70 . 70 .
(5) ينظر ، الديوان ، ص 28 .

انْهَـضْ فمَـا أنْـتَ كالـذِي زَعَمـوا أنْـــتَ وَرَبِّـــي مغَـــازِلٌ أشِـــر
قـدْ غابَـتْ عَنْـك اليَـوْمَ حَاضِـنَتِي فـــالله مِنْـــك فِيـــك يَنْتَصِـــر[1] .

ويخالف الدكتور شادان جميل ما ذهب إليه العقـاد مـن أنـه لـيس في شـعر عمر بن أبي ربيعة كله بيتا واحدا يدل علـى سـطوة رجـل يـروع الأنثـى بمـا تميـل إليه ، وأن في ذلك مبالغة يناقضها قول الشاعر وهو يصف دخوله بيـت معشـوقته ، دون خشية أعين الرقباء :

ولقـدْ دَخَلـت البيـتَ يخشَـى أهْلـه بَعْـدَ الهـدوِّ وَبَعْـدَمَا سَـقط النّـدَى
فوَجَـدْت فِيـهِ حـرّةً قـدْ زينَـتْ بِالحلِيِّ تَحْسِبه بِهَا جَمْـرَ الغَضَـا[2]

وقوله في رائيته المشهورة التي مطلعها :

أمِـنْ آلِ نعْـمٍ أنْـتَ غـادٍ فمبْكِـر غـــدَاة غـــدٍ أمْ رَائِـــحٌ فمهَجّـــر

وهي قصيدة طويلة ضمنها الشاعر قصة تحكي مغامرة له مع فتاتـه في ليلـة آثمة غاب فيها الرقباء ، فلما تنبه أهلها عرض عليهـا أن يخـرج إلى القـوم بسـيفه ، فإما الفوت وإما القتال والموت ، وفيها من أبيات السطوة والقوة والاعتـداد بـالنفس الشيء الكثير لعل أقلها يخالف ما ذهب إليه العقاد وهـو يـدافع عـن فكرتـه حـول أنثوية طبع عمر[3] .

وأما ترديد الشاعر لألقابه وكناه واسمه في شعره كظهوره بمظهـر المطلـوب لا الطالب ، إنما كل ذلك ضـرب مـن ضـروب الاعتـداد بـالنفس وإثبـات الوجـود الذاتي والمفاخرة على طريقته الخاصة ، فهي « سمة فنية تعد انعكاسا لسـمة نفسـية هي الاعتداد المفرط بالنفس »[4] ، ولا غـرو في ذلـك وهـو الفتـى الوسـيم الثـري الحسيب النسيب الذي يتيسر له ما لا يتيسر لغيره .

ويبدو لي أن نسقه الخاص في التعـبير الـذي يخـبر عـن الأنثـى ويصـف مـا يثيرها لا يمكن اعتباره دليل إحساس مشترك ، بل هو دليـل قـدرة وخـبرة ، نتيجـة خلطته الواسعة بالنساء لأسباب مختلفة أشار العقاد إلى جانب منهـا عنـدما تحـدث

(1) ينظر ، عباس العقاد ، مراجعات في الآداب والفنـون ، ط 3 ، دار الكتـاب المصـري ، دار الكتـاب اللبنـاني ، 2000 ، مج 25 ، ص 523 . وانظر ، الديوان بشار ، شرح وتقديم : محمد الطاهر بن عاشـور ، (د . ش) ، ص 155 .

(2) ينظر ، عمر بن أبي ربيعة في الخطاب النقدي العربـي الحـديث ، ط 1 ، دار دجلـة ، عمـان ، (د . ت) ، ص 53 . وانظر ، الديوان ، ص21 ، 22 .

(3) ينظر ، جابر قميحة ، منهج العقاد في التراجم الأدبية ، ط 1 ، مكتبة النهضة المصـرية ، القـاهرة ، 1980 . ، 1980 . ، ص 246 .

(4) ينظر ، شادان جميل عباس ، عمر بن أبي ربيعـة في الخطـاب النقـدي العربـي الحـديث ، ط1 ، دار دجلـة ، عمان (د . ت) ، ص 35 .

عن ظروف نشأته ثم إن حواره معهن لا يصور شخصيته فحسب بل يصور شخصية ونفسية المرأة التي يشبب بها من جميع جوانبها وملامحها .

جميل وشلل الإرادة:

وفي دراسته لشخصية جميل ، عزا العقاد عشق الشاعر إلى سمة سلبية بارزة فيه سماها شلل الإرادة ، لأن جميل حسب العقاد لم يتعلق بمعشوقته بباعث الاستمتاع بهذه العلاقة أو بشعوره بتحقيق ذاته فيها ، بل لأنه عاجز عن فراق معشوقته ، « مقيد بضروب من العادات والوسواس لا حيلة له فيها ولا قدرة له عليها »(1) .

ومن ثم بدا له أن حال العاشق لا تختلف عن حال المريض ، بل ربما كانت حاله أسوأ منه ، لأن المريض لا يدخر وسيلة للعلاج أنى وجدت ، أما العاشق فمستسلم لدائه كأنه قدره الذي لا مفر له منه ، فجميل كما يرى العقاد « مشلول الإرادة حتى عن التوسل بما يستطيع أن يحاوله من وسائل الشفاء »(2) . ويجد العقاد في مقالة والد جميل خير دليل على شلل الإرادة عند الشاعر ، فقد حاول والده مواجهته بالحقيقة بعدما رأى منه ما رأى عله يستدرك نفسه فقال له : « يا بني حتى متى وأنت عمه في ضلالك ، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وينكحها وأنت» عنها بمعزل ، ثم تقوم من تحته إليك فتغريك بخداعها وتريك الصفا والمودة وهي مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها . . . فأنشدك الله إلا ما كففت وتأملت أمرك فانك تعلم أن ما قلته حق ، ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به من قدر له وفي النساء عوض »(3) .

ثم ضمن العقاد جواب جميل لأبيه حتى يكشف عن مبلغ ما يعانيه الشاعر ، إمعانا في إقامة الدليل من ذلك قوله : « إن الرأي ما رأيت والقول كما قلت ، ثم قال : ولكن هل رأيت قبلي أحدا قدر أن يدفع قلبه هواه؟ أو ملك أن يسلي نفسه؟ أو استطاع أن يدفع ما قضي عليه؟ والله لو قدرت أن أمحو ذكراها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل إلى ذلك وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي » . .(4) .

كما ساق العقاد تعزيزا لرأيه مقالة ابن عم جميل الذي رق لحاله فأبى إلا

(1) ينظر ، عباس العقاد ، جميل بثينة ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 ، مج 16 ، ص 263 .
(2) المرجع نفسه ، ص 263 .
(3) المرجع السابق ، ص 263 .
(4) المرجع نفسه ، ص 263 ، 264 .

أن يصرفه عن ما هو فيه بلغة فيها شيء من الاستفزاز لنخوته فقال : « إنك لعاجز ضعيف في استكانتك لهذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هي أجمل منها ، وإنك منها بين فجور أرفعك عنه أو ذل لا أحبه لك ، أو كمد يؤدي إلى التلف ، أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إعذارهم إليك» . .[1] ، فأجابه : « يا أخي ، لو ملكت اختياري لكان ما قلت صوابا ولكني لا أملك الاختيار ، وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعا » [2] .

ولم يكتف العقاد بعرض هاتين المقالتين بل علق عليهما لبيان سداد رأيهما وعدم قدرتهما على ثني جميل عن الاستمرار فيما هو فيه فذكر من ذلك أنه ما نصح والد ولده بأحكم ولا أصوب من هذه النصيحة ولا أثار ندا ندا بأبلغ ولا أهيج من هذا الكلام[3] ، ثم أورد ردا بليغا موجزا لجميل على عذاله وناصحيه يقول فيه :

هِيّ السِّحْر إلا أنّ لِلسِّحْرِ رقيَةً وَإِنِّي لا ألفِي لهَا الدّهْرَ رَاقِيَا[4] .

وأكد ذلك أوثق تأكيد حين حاول أن ينفيه فقال :

يَقولونَ مَسْحورٌ يجَنّ بِذِكرِهَا وأقسِم مَا بِي مِنْ جنون ولا

ويؤكد العقاد فكرة شلل الإرادة عند جميل من طريق آخر ببحثه نشْأَة العلاقة بينهما فذكر قصة تعرفه ببثينة التي شده إليها شتمها له وكيف أثاره ذلك واستملحه منها حتى ذكر في شعره فقال :

وَأوّل مَا قَادَ المَوَدّة بَيْنَنَا بِوَادِي بَغِيضٍ يَا بثَيْنَ سِبَاب[6] .

ويذهب العقاد في تفسير قيام هذه العلاقة على الخصومة ، إلى أن ذلك يحصل عادة عند ضعاف الشخصية ، مشيرا إلى أن هناك صنفا من الناس تغريهم الإساءة ويزيد هم الحرمان كلفا بمن تعلقوا لا سيما إن اجتمع المنع والإغراء ، ويبدو لي أن حرص العقاد على جمع الأدلة التي تظهر ضعف شخصية جميل هو ما يحمله على الارتجال في الأحكام في كثير من الأحيان ، لأن قيام العلاقات على أساس الخصومة لا يدل دوما على ضعف شخصية أحد الطرفين ، فقد يدل على قوتهما أيضا وهو سبب من أسباب الإعجاب أقصاه العقاد لأنه لا يفيده في موضع

(1) المرجع نفسه ، ص 264 .
(2) المرجع نفسه ، ص 264 .
(3) المرجع السابق ، ص 263 .
(4) ينظر، المرجع نفسه ، ص 264 . وانظر ، ديوان جميل بن معمر ، جمعه وحققه وشرحه : أميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 2004 . ص 226 .
(5) ينظر ، المرجع نفسه ، ص 265 . وانظرايضا ، الديوان ، ص 96 .
(6) ينظر ، المرجع نفسه ، ص 267 . وانظرأيضا ، الديوان ، ص 28 .

الاستدلال .

وقد احتج العقاد على وقوع جميل فريسة معاملة بثينة الماكرة له بقوله :

وَلسْت عَلى بَذْل الصّفاءِ هَويتها وَلكِنْ سَبَتْنِي بِالدّلال وبِالبخْلِ[1] .

وينظر العقاد إلى هَذا اللون منَ التعلق على أنه آية من آيات العَجز ودلَيلا على ضعف الثقة بالنفس وتعليقها بمشيئة غيره « إن أقبلت عليه معشوقته رضي عن نفسه واستراح إلى هذا الرضى ، وإن أعرضت عنه ظل في حيرة وابتئاس » ، ويرى في صدها عنه فرصة للخلاص لو أن له عزيمة[2] .

وتفسير العقاد تمنع المحبوب ودلاله على المحب بالاستسلام والضعة بقبول الإساءة هو قفز على مستوى من اللذة بين المحبين لا يعرفها إلا من ذاقها، فالصد والهجر يذكيان جذوة الحب ويلهبانه مذ بدأ الحب .

ويشير العقاد في قراءة نفسية لإرادة جميل بأن الأصل في الإرادة الفردية أنها أضعف من الغريزة النوعية وأن الحسم يكون لصالح الغريزة النوعية إذا تعارضتا واصطدمتا ويلفت العقاد النظر إلى أن هذه الحالة نادرة الحدوث « ووقوعها يدل على شذوذ في الفرد أو شذوذ في الأحوال التي تعرضت لها علاقته الغرامية »[3] ، كما هو الشأن في حالة جميل؛ الذي يرد إليه العقاد علة هذا الشذوذ قبل الأحوال التي تعرضت لها العلاقة .

لقد توفرت أسباب كثيرة في رأي العقاد ، أضعفت من إرادة جميل وعرضته للعجز الشديد عن مواجهة هذه الأزمة النفسية العميقة التي عصفت به ، من ذلك : أنه كان مدللا قليل التمرس بالمصاعب من ثم يكون هدفا سهلا لأي أزمة عارضة سيما الأزمات النفسية ، ومنها وسامته التي تميل به إلى التصدي إلى هذه الأهواء والتفرغ لها ، وكذا فضول الوقت الذي لا يملأه بالشواغل ولا يقسمه بين عمله وهواه إلى جانب ضعف رأيه ، وقلة حزمه .

كما كان بالمقابل مزاجه الفني يحفزه على التمادي في الغواية واستيحاء المقاصد الشعرية منها ، ويضاف إليها العصر وأثر البيئة وحكمها ، « وكلها كان مما يمد في دواعي هذه الفتنة وينحني بينه وبين وسائل الخلاص منها »[4] .

والغريب أن هذه الأسباب التي يعتبرها العقاد مرتكزا في إثبات خور عزيمة

(1) ينظر ، المرجع السابق ، ص 267 . وانظر ، الديوان ، ص 177 .
(2) المرجع نفسه ، ص 267 .
(3) المرجع نفسه ، ص 265 .
(4) المرجع السابق ، ص 266 .

جميل يشترك في قسم كبير منها مع عمر بن أبي ربيعة ومع ذلك لا يصفه العقاد بنفس الوصف .

تضخم الأنا في شعر المتنبي:

وفي دراسة شخصية المتنبي ، تناول العقاد سمة من أبرز السمات السلبية التي عرف بها الشاعر وأعني بها شعوره بالعظمة وسيطرته عليه؛ إلى الحد أنه كان يرى أن نفسه أكبر من تشتغل بالشعر وبالوقوف به تزلفا على أبواب الممدوحين ، لأنه « خُلق لما هو أجل وأرفع من ذلك وهو الملك والقيادة »[1] . ومن ثم كان المتنبي لا يجد غضاضة في أن يعتبر نفسه ندا لبعض السلاطين ، ولا يجد حرجا في التصريح بذلك في شعره ، ويستدل العقاد على رأيه هذا بأبيات هنأ المتنبي فيها كافورا بدار بناها فقال :

إنّمَـــا التَهْنِئَـــات للأكفـــاءِ وَلِمَـــنْ يَـــدْنِى مِـــنَ البعْـــدَاءِ[2] .

وذهب إلى أبعد من ذلك في ختام القصيدة فقال :

وَفـــؤَادِي مِـــنَ الملـــوكِ وَإنْ كـــا نَ لِسَـانِي يـرَى مِـنَ الشّـعَرَاءِ[3] .

وفي اعتقادي أن هذا لَيس غريبا أن يصدر عن المتنبي لكن الغريب أن تحتمل طبقة السلاطين منه هذا ، وأن يدفعهم التهافت على شعره إلى غض الطرف عن تعاليه وتطاوله ومعاملته لهم معاملة الأنداد .

وإذا كان المتنبي يرى بأنه قد خاب ظنه لعدم تحقق آماله في العظمة ببلوغ الملك والسلطان ، فإن العقاد قد خاب ظنه بالشاعر لتعلق همته بهذه الآمال وغفلته على أنه بثروته الشعرية أخلد وأعظم من المال والملك .

ولعل الواقع يؤكد ما ذهب إليه العقاد ، فقد مضى على المتنبي أكثر من ألف سنة من الزمان لم يخب فيه ذكره ولم يتقادم على طول العهد أثره ، فيما لا يُذكر السلاطين وأصحاب الرياسة إلا مقرونين به وبأمثاله ، وقد صدقت نبوءته بعدم ذهاب أثره بهلاك جسده ، وفي ذلك قال :

أَنَامُ مَلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَاهَا وَيَخْتَصِمُ[4] .

(1) عباس العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، ط 3 ، الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 2000 ، مج 25 ، ص 177 .

(2) ينظر ، المرجع السابق ، ص 178 . وانظر ، ديوان المتنبي ، (د . ط) ، دار الجيل ، بيروت ، (د . ت) ، ص ص 446 .

(3) ينظر ، المرجع نفسه ، ص 178 . وانظر ، الديوان ، ص 447 .

(4) وانظر ، الديوان ، ص 332 .

وقد شبه بعض الباحثين المتنبي بامرئ القيس في السعي والمصير ، إذ راح كل منهما يبحث عن الملك ، إلا أنهما عادا في نهاية المطاف بخفي حنين ، لكنهما وإن منيا بالإخفاق في الحصول على تاج السلطان فقد حملا تاج الشعر دون منازع ، كما جمعهما الأصل الواحد فكلاهما من اليمن ثم إنهما لقيا المصير نفسه فقد قتلا في طريق عودتهما إلى مسقط رأسيهما[1] .

ولم يكتف العقاد بالقراءة السطحية لسلوك الشاعر من خلال اتصافه بهذه السمة بل نفذ إلى أغوار نفسيته ، لينتهي به استبطان الشاعر إلى نتيجة خلاصتها أن المتنبي كان يتمتع بذات الاستعداد الفطري الذي وُهبه رجال المطامع ، لكنه استعداد داخلي ليست له صورة خارجية لافتقاره لأداة العظمة ، ومن ثم انحرفت عظمته إلى « عالم الفنون ولم تخرج في عالم الحوادث » [2] .

ويرى العقاد أن من أبرز مظاهر شعور المتنبي بالعظمة نزعته إلى التضخيم التي لا يجاريه فيها أحد ، من ذلك قوله :

خَمِيسٌ بِشَرْقِ الأَرْضِ وَالغَرْبُ زَحْفُهُ وَفِي أُذُنِ الجَوْزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ[3] .

وقوله :

وَلاَ تَحْسَبَنَّ المَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً فَمَا المَجْدُ إِلاَّ السَّيْفُ وَالفَتَكَةُ البِكْرُ

وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ المُلُوكِ وَأَنْ تُرَى لَكَ الهِبَوَاتُ السُّودُ وَالعَسْكَرُ المَجْرُ[4] .

وتتغذى هذه نزعة حسب العقاد من تعلق الشاعر الكبير بصور الفخامة والعظمة وهيلمان الملك وتقاليد السلطان ، « ومظاهر الوجاهة والقوة ، فضلا عن ذوقه الموسيقي الخاص لطنين الألفاظ وجرسها » [5] .

ويبدو لي أن العقاد لم يترك رافدا من الروافد يعزز فكرة الشعورلدى الشاعر إلا و ذكره ، لتبرير سلوكه وشعره الذي فاض بالتعبير عن هذا الانشغال لأنه حسب العقاد ملك عليه نفسه .

وإذا كان تلبس فخره بهذا الشعور لا يستغرب لما فيه من حديث عن النفس ، فإن ارتباط مديحه به مما يثير الاستغراب حقا ، أما العقاد فيرى في مديح

(1) انظر ، محمد آيت لعميم ، المتنبي الروح القلقة و الترحال الأبدي ، ط 1 ، المطبعة والوراقة الوطنية ، المغرب ، 2010 ، ص 175 .
(2) عباس العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، مج 25 ، ص 181 .
(3) ينظر أيضا ، المرجع نفسه ، ص 181 .
(4) ينظر أضا، المرجع نفسه ، ص 181 . وانظر ، الديوان ، ص 189 .
(5) المرجع السابق ، ص 182 .

المتنبي فخرا آخر غير مألوف ، لأنه كان يثني على ممدوحه بما يحسه ويريده هو لنفسه ، وربما استكثر عليه مدحه فيشاركه فيه « بل إنه يعطي نفسه قسطا منه لا يقل عن قسط ممدوحيه » [1] .

وإذا كان تقديم المتنبي لنفسه على حساب ممدوحيه وتواتر ذلك في أشعاره حمل بعض منتقديه إلى وصفه بالنرجسي ، فإن بعض النقاد اعتبروا نرجسيته من مآثره لا من مثالبه ، حيث إنها كانت بمثابة طاقة دافعة إلى تمجيد الذات التائقة إلى التحرر وبلوغ الكمال الإنساني[2] .

وكما بدا التضخيم بالنسبة للعقاد آية دالة على شعور المتنبي بالعظمة ، بالمقابل كان تصغيره دالا على هيمنة هذا الشعور عليه ، وهكذا اتصلت المبالغة في الاستصغار بالمبالغة في التفخيم وقد بلغ ولع المتنبي بالتصغير حدا لم يبلغه شاعر قبله أو بعده ، ممّا جعله ظاهرة مستحقة للتعليل والتحليل[3] .

استدراك العقاد على المعري:

وفي هذا السياق ذكر العقاد تناول المعري للظاهرة ، من خلال عرضه لإجابة هذا الأخير عن سؤال ابن القارح ، فقد أكد له من خلالها نزوعه الشديد للتصغير ، وأنه « لا يقنع منه بخلسة المغير ، ولا ملامة عليه ، إنما هي عادة صارت كالطبع تغتفر مع المحاسن » [4] .

ومع موافقة العقاد للمعري في أنها عادة وأنها يمكن أن تغتفر مع المحاسن ، لكنه تساءل في ما إن كانت عادة من عادات اللفظ ؟ أم من ضرورات الوزن ؟ أم من عبثات اللسان؟[5] .

ويبدو لي أن في تساؤلات العقاد عن طبيعة هذه العادة وصفتها ، ما يدل على أن العقاد لم يقنع بإجابة المعري وقد قاده ذلك إلى البحث عن دواعي هذه الظاهرة لعله يجد فيها ما يرضي فضوله ، فذكر أن أكثر ميله للتصغير حين يهجو وهو حانق مغتاظ ، أو في حال الاحتقار والتعالي والاستخفاف ويستدل العقاد على ذلك بقول المتنبي في كافور :

---

(1) المرجع نفسه ، ص 185 .
(2) ينظر ، محمد آيت لعميم ، المتنبي الروح القلقة و الترحال الأبدي ، ص 176 .
(3) ينظر ، سعد أبو الرضا محمد أبو الرضا ، نحو منهج نفسي في نقد الشعر ، (د . ط) ، الهيئة العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ، 1984 ، ص 62 .
(4) عباس العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، مج 25 ، ص 177 .
(5) ينظر ، أحمد الحوفي ، أضواء على الأدب الحديث ، ص 226 .

أوْلـــى اللَئَـــام كـــوَفِير بِمَعْـــذِرَةٍ فِي كلِّ لؤمٍ وبَعْض العذْرِ تَفنِيـد[1] .

ومثاله أيضا ما قاله في الشعراء الذين يزاحمونه :

أفِي كلِّ يَوْمٍ تَحْـتَ ضِـبْنِي شَـوِيعِرٌ ضَعِيفٌ يقاوِينِي قصِيرٌ يطـاوِل[2] .

وفي ذمه لأهل زمانه ، يقول :

أذَمّ إِلـــى هَـــذَا لِزمَـــان أهَيْلـــه فـأعْلمهمْ فـدْمٌ وَأحْـزَمهمْ وَغـد[3] .

ومع أن أكثر المواضع التي استدل فيها العقاد عن التصغير عند الشاعر كانت في الهجاء إلا أنه نفي أن يكون التصغير أداة لصيقة بكل هجاء ، ويصر على رأيه بأن استخدام المتنبي لهذه الصيغة يرجع إلى خلائقه الشخصية[4] .

وهذا يعني أن الحالة النفسية التي تسيطر على الشاعر ، هي التي تتولى توجيه وتحديد اختياراته للألفاظ ، وإذا كان الدكتور محمود السمرة يوافق العقاد في أن الباعث على تصغير المتنبي هو الشعور بالعظمة ، إلا أنه لا يراه الباعث الوحيد؛ فاحتقاره للناس من البواعث على التصغير أيضا[5] .

وفي اعتقادي أن استدراك السمرة على العقاد لا موجب له ، لأن التفكير في الاحتقار يحركه غالبا الشعور بالعظمة ويبدو لي أن العقاد تجاوز عن باعث مهم يتمثل في العظمة التي يصطنعها المتنبي وهو يدرك ضعفه وعجزه عن بلوغ غاياته ومع ذلك يكابر ويمزج ذلك باحتقار من حوله .

اعتداد أبي نواس بنفسه بين العقاد وطه حسين:

وفي السياق ذاته أشار العقاد في دراسته لأبي نواس ، إلى اعتداده الشديد بنفسه إلى درجة تضخم الأنا عند الشاعر حتى ساهم ذلك في خلق عقدة لهذه الشخصية التي يفترض أنها في منعة من الوقوع في براثن العقد لتحصنها بالعرض وأعني بهذه العقدة خسة النسب لأن في المجاهرة والظهور بها إهانة[6] . وقبول الإهانة يتعارض مع شعور النرجسي وإحساسه كيفما كان سببها ويستدل العقاد على تضخم الأنا عند أبي نواس وتيهه بنفسه على غيره بقوله :

(1) ينظر ، عباس العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، مج 25 ، ص 183 . وانظر ، الديوان ، ص 508 .
(2) ينظر ، المرجع نفسه ، ص 183 . وانظر ، الديوان ، ص 377 .
(3) ينظر ، المرجع السابق ، ص 183 . وانظر ، الديوان ، ص 198 .
(4) ينظر ، سعد أبو الرضا محمد أبو الرضا ، نحو منهج نفسي في نقد الشعر ، ص 64 .
(5) ينظر ، محمود السمرة ، العقاد دراسة أدبية ، ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمان ، الأردن ، 2004 ، ص 222 . وانظر ، الديوان ، 294 .
(6) انظر ، عباس العقاد ، أبو نواس ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 ، مج 16 ، ص ص 115 . انظر ، العربي حسن درويش ، أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر ، (د . ط) ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، 1987 ، ص 361 .

لَقَدْ زَادَنِي تِيهًا عَلَى النَّاسِ أَنَّنِي أَرَانِي أَغْنَاهُمْ وَإِنْ كُنْتُ ذَا عُسْرٍ[1] .

ومن مظاهر تيه أبي نواس أنه يتعالى عن من يتعالى عنه ، ولا ينهض لتحية من يحييه من القادة والرؤساء إلا أبا العتاهية الذي صافاه ولم يقاطعه أو يترفع عنه حتى بعد تزهده وبسبب تلبسهما بالآفات الاجتماعية في شبابهما[2] .

ويخالف الدكتور طه حسين العقاد في النظرة لاعتداد أبي نواس بنفسه إذ يراه في حده الطبيعي الذي عليه عامة الشعراء قديما وحديثا ، ويرى أن هذا الاعتداد شرط أساسي للتجويد الفني؛ لأنه لولا ذلك ما كان ليحفل بالشعر وما كان ليبدع فيه ، ويستغرب من وصم العقاد له بالنرجسي بالرغم من أن اعتداده ليس ملفتا بالقياس مع غيره من الشعراء : كبشار والمعري والمتنبي وهذا الأخير تجاوز الحد الذي وقفت عنده جمهرة الشعراء[3] .

ومع تسليم العقاد برأي الدكتور طه حسين في اشتراك الشعراء في سمة الاعتداد بالنفس؛ لكنه يراه اشتراكا في المعنى اللغوي ، فحسب لأن الدراسات النفسية كما يرى العقاد تميز بين مدلولات هذا اللفظ المختلفة حسب بواعثها فهناك : اعتداد باعثه جنون العظمة ، وآخر بداعي جنون الأثرة ، وغيره يسببه جنون الانحصار الذاتي ، كما تذكر هذه الدراسات اعتدادا آخر يؤدي إليه جنون العناد فيما يؤدي جنون الاشتهاء الذاتي إلى النرجسية وينتهي العقاد بهذا التعديد إلى أن « الدراسات النفسية تميز بين هذه المدلولات التي يتميز فيها أبو نواس والمعري والمتنبي وبشار حيث تجمعهم في المعجم كلمة الاعتداد »[4] .

ويؤكد العقاد على دقة الدراسات النفسية وأهميتها لكونها تعرفنا أن الصفة الواحدة قد لا تؤدي إلى نتيجة واحدة ، ويستدل على ذلك بحب التدليل بأنه قد « يورث اعتدادا بالنفس ، وقد ينم كذلك على فقدان الثقة بها لأن صاحبه يعلق قيمته على التفات الآخرين إليه »[5] .

ويبدو لي أن في استعراض العقاد لبواعث الاعتداد بهذا التدقيق ، وضبطه للمصطلح بهذه العناية ، لا سيما وأنه يوجه كلامه إلى الدكتور طه حسين ، أنه بذلك يلفت انتباه الباحثين إلى حظه من هذه الدراسات ، وبيان مستقبلها ، ومحاولته إغراءهم بها ، وقد يكون أيضا لإعذاره في اشتغاله الكبير بها وإقحامها في مجال الأدب .

(1) انظر ، المرجع نفسه ، ص 119 .
(2) المرجع نفسه ، ص119
(3) انظر ، طه حسن ، خصام ونقد ، (د . ط) ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، (د . ت) ، ص 692 .
(4) ، عباس العقاد ، يوميات ، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 ، ج 2 ، ص 20 ، 21 .
(5) المرجع نفسه ، ص 40 .

جيتي وسلبية اللامبالاة:

وفي دراسته لشخصية جيتي ، أشار العقاد إلى اللامبالاة التي اتسم بها سلوك الشاعر دون مبرر ممّا عرضه لانتقاد شديد في محيطه فبعد أن أثنى العقاد على هذه الشخصية من خلال حديثه عن اتزانها واعتدالها في مطالب العقل والعاطفة أشار إلى ما انطبع به سلوك الشاعر من جفوة باردة وجمود لا ينسجم مع طبيعة الأحياء وأن سلوكه هذا في مثل عصره يكاد أن يحوله إلى شيء من الأشياء الجامدة ، وقد وصف أحد الكتاب القريبين منه حاله فقال : « أنه يشبه تماثيله الرخامية تماما[1] .

ثم أشار العقاد إلى انصراف الشاعر انصرافا مطلقا إلى ما يرتبط بشؤونه وأعماله فلا ينفق جهدا أو وقتا فيما لا يعنيه ولا يكلف نفسه أدنى إحساس بالآخرين مما تقتضيه المروءة والنخوة في وقت كانت فيه أمم العالم من حوله تعج بالخطوب « وتعتلج بالآمال والآلام وهو قابع وراء أسوار نفسه لا يريمها ولا يطل منها إطلالة عطف أو اهتمام » [2] .

ونتيجة لهذا الموقف المحرج كما يرى العقاد حاول جيتي أن يبرر لمن لامه على جموده وعدم تفاعله مع الثورة إبان النهضة الوطنية فذكر من ذلك قوله لمن لامه على عدم حمل السلاح « كيف كنت تراني أحمل السلاح بغير بغضاء؟ ومن أين لي بالبغضاء في غير شباب؟ لو حدثت هذه الأمور لي وأنا في العشرين لما كنت آخر من يهب ويهيب ولكنها حدثت وأنا قد جاوزت الستين » [3] ، ويعلق العقاد على هذه الحجة الواهية بتساؤل فيه شيء من التهكم رغم مكانة جيتي عنده ، إذا كانت سنه لا تسمح له بهذه المشاعر « فكيف عرف أن يحب الفتاة الحسناء ويخطبها للزواج في الرابعة والسبعين ، ولم يعرف أن يبغض أعداء بلاده في الستين » [4] .

والعقاد يلمح بذلك التناقض الشديد في قول الشاعر وسلوكه إذ كيف يعجز القلب الذي يحب عن حمل البغضاء لأنه لا أيسر على قلب المرء من المشاعر السلبية .

وفي هذا الإطار ذكر العقاد استغاثة بيتهوفن وصديقه فويت به وهو على

(1) ينظر ، عباس العقاد ، تذكار جيتي ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 مج 19 ، ص 97 ، 98 .
(2) المرجع نفسه ، ص 98 .
(3) المرجع السابق ، ص 99 .
(4) المرجع نفسه ، ص 100 .

فراش الموت فلم يجب دعاءهما ولم يرع حقوقهما عليه ، رغم أن ذلك لا يكلفه شيئا سوى المجاملة الاجتماعية ، « وقس على ذلك علاقته بكل إنسان حتى أمه وأبيه ، وأولياء نعمته وأقرب الناس إليه » (1) .

خلاصة

و لعل أهم ما ينبغي التنبيه إليه في نهاية هذا المقال هو أن العقاد سعى من خلال الإشارة إلى السمات السلبية للشخصيات التي درسها إلى بيان أثرها في شخصية الشاعر وشعره ، وأنه لم يكن هذا قصارى جهده في تناولها بل امتد جهده لبحث أسبابها ودواعيها ثم إنه لم يكتف في تقريرها والتحقق منها باعتماد الرواية التاريخية فحسب كما دأب على ذلك كتاب التراجم بل استعان بآثارها أيضا باعتبار أن الشعر كما يرى تعبير عن نفس صاحبه .

مصادر ومراجع البحث :

1 ـ جابر قميحة ، منهج العقاد في التراجم الأدبية ، ط 1 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1980 .
2 ـ محمد الطاهر بن عاشو ، شرح وتقديم ديوان بشار : (د . ش) .
3 ـ ديوان جميل بن معمر ، جمعه وحققه وشرحه : أميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 2004 .
4 ـ يوسف شكري فرحات ، شرح : ديوان عمر بن أبي ربيعة ط 1 ، دار الجيل ، بيروت ، 1992 .
5 ـ ديوان متنبي ، (د . ط) ، دار الجيل ، بيروت ، (د . ت) .
6 ـ سعد أبو الرضا محمد أبو الرضا ، نحو منهج نفسي في نقد الشعر ، (د . ط) ، الهيئة العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ، 1984 .
7 ـ شادان جميل عباس ، عمر بن أبي ربيعة في الخطاب النقدي العربي الحديث ، ط1 ، دار دجلة ، عمان (د . ت) .
8 ـ طه حسن ، خصام ونقد ، (د . ط) ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، (د . ت) .
9 ـ عباس العقاد ، تذكار جيتي ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 .
10 ـ عباس العقاد ، ساعات بين الكتب ، ط 1 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1986 .
11 ـ عباس العقاد ، أبو نواس ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 .
12 ـ عباس العقاد ، جميل بثينة ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 .
13 ـ عباس العقاد ، شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 .
14 ـ عباس العقاد ، مراجعات في الآداب والفنون ، ط 3 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 2000 .
15 ـ عباس العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، ط 3 ، الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 2000 .
16 ـ عباس العقاد ، يوميات ، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 .
17 ـ العربي حسن درويش ، أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر ، (د . ط) ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، 1987 .
18 ـ عمر بن أبي ربيعة في الخطاب النقدي العربي الحديث ، ط 1 ، دار دجلة ، عمان ، (د . ت) .
19 ـ عمر فروخ ، عمر بن أبي ربيعة ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت ، 1983 .
20 ـ محمد آيت لعميم ، المتنبي الروح القلقة والترحال الأبدي ، ط 1 ، المطبعة والوراقة الوطنية ، المغرب ، 2010 .
21 ـ محمود السمرة ، العقاد دراسة أدبية ، ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمان ، الأردن ، 2004 .

(1) المرجع نفسه ، ص 100 .